ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارن

أو ما يدعوه الفرنجة « littérature comparée »

فى كتاب تلخيص كتاب أرسطو فى الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد *

— تلخيص وتحليل —

للأستاذ خليل هنداوى

مقدمة :

إن الانسان لولوع جداً باظهار الحقائق عن طريق المقارنة ، والمقارنة قد تكون مقارنة فرد بفرد أو شعب بشعب . أما الأولى فقد تكاد تكون شائعة فى كل عهد لأنها رأس كل نقد . والأوائل لم يعمروا مثلاً امرأ القيس بما غمروه من فيض عبقريته إلا بعد أن قرنوا شاعرية غيره إلى شاعريته . والانسان مسوق بطبعه الموروث إلى مثل هذه المقارنة التى قد تكون غريزية فى كل كائن يفكر ويشعر . أما المقارنة الثانية فهى حديثة النشأة ، لأن النقد لم يكن ليخطر فى باله أن يقيم الأوزان بين أدباء أمتين مختلفتين ثقافة واتجاهاً وشعوراً . ومن كان يفكر فى المقارنة بين شكسبير وراسين ، ودانتى وميلتون ، وبين ميزات الأدب الألمانى والأدب الفرنسى ؟ وكل واحد منهم يمت بوسائله إلى أمة مستقلة فى تطورها وبيئتها . ولكن الأدب — كما يبدو — له سلطان قاهر ، يرمى بالحواجز التى تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم فى عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه الأدب ...

وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم إلا ما شاء ربك ! . . وربطت بين المفكرين ربطاً لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية وانما يقوم على رفع منارة الفكر واعلاء كلمة الفكر . فما أطهر هذه الرابطة لو أنها تخرج من هذا العالم غير المحدود الى العالم الذى سودته الحدود ! فتجد الأديب الفرنسى يحلل الأديب الألمانى دون أن تطغى على قلبه سورة الحقد . وتجد الأديب الألمانى يكتب عن الأديب الفرنسى من غير أن تغلب عليه موجدة . ذلك أن عالم الفكر سما بهما فوق عالمهما المحدود الذى غمرته الحزازات وتقطعت بين وشائجه الأسباب . فهما يتفاهمان فى ذلك العالم ويصافح بعضهما بعضاً

هذا هو الأدب بالمقارنة يعمل على درس ميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم . وهو أدب — كما قلت — حديث الخلق ، شجع على نشره شيوع رسالة الأدب الانسانى . ولعل رسالة الفلسفة كانت أسبق من الأدب الى هذه الرسالة . لأنها تنعتق من قيود العاطفة ولا تتخذ مطيتها إلا الفكر . والفكر أصلب عوداً من العاطفة . والفلسفة وحدها كانت أبعد العلوم الفكرية شيوعاً وذيوعاً فى كل عصر ، تكتسبها الأمم الغالبة من الأمم المغلوبة دون أن يلحقها عار الاكتساب ، ودون أن تتحوط له . كما نقل العرب الفلسفة اليونانية بحذافيرها ، وطبقوها على عقائدهم الفكرية والاجتماعية ، حتى غدا اليونان أساتذة العرب فى الفلسفة . أما الأدب اليونانى فلم يكتب له حظ الانتقال فى كثير ولا قليل . ولعل ذلك يعود الى اختلاف الاحساس والتعبير عند الأمتين . ومن عجب الأيام أن يمتزج المنطق اليونانى مع العقل ، ويتبدل حتى يغدو جزءاً من العقل العربى . والأدب اليونانى لا يكتب له إلا الخيبة

ألم يتدارس العرب الأدب اليونانى ، كما تدارسوا الفلسفة اليونانية ؟ قد يُظن أنهم درسوا شيئاً منه وسمعوا ألحان هوميروس فيه ، ولكن ألحانه لم تطب لهم ، لأن هذه الأساطير التى يطفح بها أدبهم جاءت فى العهد الذى كان يسيطر فيه المنطق اليونانى على العقل العربى ، فصموا عن هذه الألحان ولم يعيروها التفاتاً . وقد يظن أن الأدب العربى الذى كانت معجزة البلاغة منه كان سيد نفسه ، لا يميل الى اقتباس قواعد البلاغة من غيره ، وما

---

* قد وقعنا على مقالات متفرقة من هذا الكتاب النفيس اعتمدنا عليها فى دراستنا هذه . فترجو الرسالة أن تحيطنا علماً بهذا الكتاب وحبذا لو تعمل لجنة التأليف والترجمة والنشر على نشر هذا الأثر الكريم

(الرسالة) تلخيص كتاب أرسطو فى الشعر لابن رشد طبع فى مدينة فلورنسه سنة ١٨٧٢ ووقف على طبعه (فوسطو لارنيير) ومنه نسخة فى الخزانة التركية تحت رقم ١١٠٤

فوق بلاغة الكتاب بلاغة . وقد يُظن — وأُرجح هذا — أن العرب طووا الأدب اليونانى — اعتمادا على الظن الثانى — ولم يلجوا فيه ، فلم ينمُ لهم ذلك الذوق اليونانى الذى يستطيع أن يحس لذة فهم وعبقريتهم كما يُحس أهـله ؛ وبذلك طغا العقل اليونانى على العرب . أما أدبه فلم يكن له فى الدائرة نصيب

على أن هذا الأدب الذى لم يترك له أثراً فى الأدب العربى قد شغل بعض أذهان رجال من العرب ؛ شغلها عن طريق الفلسفة لا عن طريق الأدب . فابن رشـد والفارابى قد ناقشا الشعر اليونانى لا بالطريقة الفنية التى ينبغى لصاحبها أن يتبعها ويتخذ لها السبل المختلفة فى نفسها ، وإنمـا ناقشاه بالطريقة التى اتبعها أرسطو . فلولا أرسطو لم يتصـد ابن رشد والفارابى للشعر اليونانى ، فهما فى ذلك متبعان لا مبتدعان . فاذا أثنى ابن رشد على هوميروس فهو لم يثن بلسان نفسه وفن نفسه ، وإنما يثنى لأن أرسطو أثنى عليـه . وسبب ذلك واضح ، لأنهما قرآ تحليل أرسطو لهوميروس ولم يقرآ لهوميروس نفسه . وبذلك ظل الأدب اليونانى بعيدا عنهما . وبالرغم من ذلك نرى ابن رشد قد استطاع أن يدرس قواعد شعرهم ويفيد من تلك القواعد ويعمل على تطبيقها فى آداب أمته . وعمله هـذا هو ما نريد منه « الأدب بالمقارنة » وهذه المقارنة برغم نقصها الفنى جاءت مقارنة حسنة فى بابها ، مبتدعة وقتها . ألقت على الأدب العربى ضوء دراسة جديدة . على أن أدباء العرب الذين وقفوا على هذه المقارنة وشعروا بهذا التفاوت لم يجدوا فى أنفسهم ما يحملهم على مناقشة هذه القواعد والاستفادة منها ، وقد رأوا ما حل باخوانهم الفلاسفة من الوشايات والكائد التى كانت تنصب لهم ، وألوان الاضطهاد الذى نزل عليهم . أضف الى ذلك أن الألحان الوصفية والعاطفية فى الشعر اليونانى كانت تتمشى فى تضاعيفها العقيدة الوثنية والآلهة الكثيرة ، والعرب كانوا شديدى الغيرة على هذا الواحد زهوا به على الأمم ، فصرفتهم الأساطير عن تذوق ما فى الأساطير

تذوق هذان الرجلان بعض روائع الأدب اليونانى ولكن طبيعتهما الأدبية لم تكن لتخول لهما أن يكونا زعيمى مدرسة فى الأدب جديدة ، فلم يخرج تأثيرهما عما اختصا به . وهيهات أن يصنع الفيلسوف ما يصنعه الأديب فى عالم أدبه . فلو أن ابن الرومى مثلاً تذوق هذه الروائع إلى حد بعيد لفعل أكثر مما فعل ، ولخلق للشعر أخيلة أخرى ونماذج أخرى ، ولكن ابن رشد ماعسى يستطيع أن يعمل وهو ليس بزعيم مدرسـة أدبية ! إنه يجادل ويحدد ويهدى إلى مناهج ومناهج ولكنه لا يخلق شيئاً

إن فضل ابن رشد على الأدب العربى فى هذا الكتاب لفضل عظيم ، لأنه يدل على العربى الأول الذى كتب عن الأدب بطريق المقارنة ، ووفق فى هذه المقارنة كثيراً ؛ ويدل بعد ذلك على أن العرب جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ليستفيدوا ويفيـدوا من قواعدها ، وإن دراستنا — اليوم — للأدب الأجنبى أكثر ضرورة منها بالأمس ، بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب ، وأصبح لا يليق بنا أن نترك الأدب العربى محصوراً فى عزلته بحجة صيانته ووقايته . وما الذى يخشى عليه ؟ وإنما صيانته ووقايته فى تعريضه للهواء والنور لا فى حجبه عنهما ، وفى تقريبه من الآداب العالمية حتى يساهم معها فى تأدية رسالتها لا فى تنفيره منها وتنفيرها منه ، على أن يبقى أدبنا محتفظاً بألوانه ، ويبقى أدبنا عاملاً على ابدائها لا على اخفائها ؛ وبهذا نحقق غاية من غايات الأدب ، ونفتح لنا زاوية فى عمارة الأدب ، ونكمل الخطوة الأولى التى خطاها الأوائل ولم يكملوها

غرضه الكتاب وغرضه الشعر :

وقعت مصادفة على مقالات منثورة من هذا الكتاب ، وهى مقالات لا تكاد تؤلف المصنف كله ، وانمـا وجدت أنها تعطى فكرة عامة عن الكتاب ومنهج صاحبه ومترجمه فيه . وقد بينت أن المترجم انمـا عنى به لأنه أثر من آثار أرسطو ، ولأن قواعده فى الشعر ذهبت قوانين عامة ، لأن أرسطو الجبار الذى أراد أن يفرض سلطان العقل على كل سلطان أراد أن يوحد مملكة الشعر ويمسك على الاحساس كما أمسك على العقل ، جاهلاً أن الفرق بين هاتين المملكتين مملكة الاحساس ومملكة العقل فرق كبير ، ولكن الرجل استدرك وزعم أنه يذكر قوانين عامة للشعر ، وهو لا يخوض فى تولد الاحساس وملاءمة التعبير عن الاحساس ، لأن هذا مما يتفاوت فيه البشر أنفسهم . فألف هذا الكتاب ليكون له كتاب فى الشعر كما ترك كتاباً فى الخطابة والموسيقى ،

ولقد انتصر هذا العقل الى حد كبير فى هذه الميادين التى تختلف عن ميدانه الذى خلق له ، والتى لم يكن له مفر منها ليستطيع أن يمثل حق التمثيل ثقافة عصره . ولقد استطاع الى حد بعيد أن يكسو هذه الأشياء النافرة عنه بأردية عقله وتفكيره ، فتبيت تقرأ الشعر فكراً والتصوير تفكيراً . ولم لا ينتصر وقد أدرك بعين التأمل عبقرية هوميروس وأثنى عليه الثناء الجميل ؟ وكيف يوفق الناقد بين رجلين خلدت الطبيعة هذا بعقله وذاك بقلبه ؟

كتب أرسطو كتابه عن الشعر لا كما يريد الشعر لأن أرسطو مكبل بعقله مقتحم بمنطقه . فالأقيسة والاسطقسات والبراهين لا تكاد تفارق ما أراد منه أن يكون قوانين عامة للشعر ، فجاءت قوانينه بذلك قوانين جافة قاسية يغلب عليها الذهن الرياضى ، لو مشى عليها الشعر ذاته لجاء ممسوخاً . وجميل أن تدخل الفلسفة الشعر بشرط أن تتنازل كثيراً عن أقيستها حتى يمكنها أن تتذوق الشعر

تناول ابن رشد هذا الكتاب وترجمه[1] وتصرف فيه كثيراً وأحسن فى هذا التصرف كثيراً ، فانه استغنى عن النماذج اليونانية التى يستشهد بها المؤلف وأحل محلها نماذج عربية أحسن انتقاءها واصطفاءها ودلت على ثقافة أدبية عالية فى ابن رشد لا تقل قيمة عن بقية الثقافات التى يتضلع بها الفيلسوف . ولكن عيب الترجمة فى أن ابن رشد طوى كل النماذج اليونانية ، ومن حقه أن يأتى بها ويضع ازاءها ما جاء به من نماذج العرب لتكون الترجمة والمقارنة فى الأمانة سواء ؛ وجاء تقسيمه للمقالات بحسب تقسيم أبواب الشعر عند العرب ، لأنه وقف درسه على هذه الأبواب ، وقد أضاف اليها دراسات مختلفة فى صناعة الشعر والغاية منها ، وفى ألحانه وأوزانه بالنظر الى التوقيع لا الى الأعاريض ، وفى العلل المولدة للشعر ، وفى التخييلات والمعانى ، وفى كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته وأنواع المحاكاة المقبولة وغير المقبولة ، وفى صناعة الأشعار القصصية . وكان أكثر توسعاً وتصرفاً فى درس صناعة « المديح وأجزائها » ، لأن هذه الصناعة كانت أروج أبواب الشعر فى ذلك العهد ، وموضع التفات أكثر الشعراء ، ولسهولة المقارنة فيها ، واستخراج النماذج منها ، وقد غض عن ذكر « الهجاء » لأن قوانينه تنطبق على قوانين المديح . على أن ابن رشد ليلام لوما عنيفاً فى هذا الباب لاهماله باب الوصف اهمالاً كلياً . ولعل درسه له كان يعمل على خلق جديد فيه . ولا ريب عندى أن أرسطو قد عالج هذا الباب الواسع عندهم معالجته لغيره من الأبواب ، ولكن ابن رشد قد طوى كشحاً عنه كما ضرب صفحاً عن غيره

أما الغرض من هذا الكتاب فهو — كما يقول صاحبه — « تلخيص القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم أو للأكثر فى الشعر ونسبة الموجودة فى كلام العرب أو كلام غيرهم . والشعر عنده هو أقاويل تحتاج الى وزن ولحن ، ولا يسمى الشعر إلا ما جمع الى الأقاويل التى تسمى شعراً مع الألحان كهوميروس (ولعل هذا النوع هو ما يدعى الشعر القصصى ، وهو أول ما عرفه اليونان من ضروب الشعر) ، وقد أدخل على الصناعة الشعرية بعض أقيسة منطقية ، دأبها أن تكبل الشعر ، ولكنها تقوّم العقل

(البقية فى العدد القادم)

خليل هنداوى

(١) ثبت أن ابن رشد لم يكن يحسن اليونانية وإنما كان نقلها عن غيره

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفا جديداً

الثمن ٢٠ قرشا عدا أجرة البريد